أن يدعو صديقاً له من الألمان ليسمعنا قطعة موسيقية ألمانية فكاهية ، وقال إنها : « تميت من الضحك » وأيد زميله قوله ، فقبلنا وذهب رب الدار معهما لدعوة هذا الألماني الذي بُشرنا بأنه سيميتنا من الضحك وكانت شقته في العمارة نفسها فما لبثوا أن عادوا ومعهم رجل وقور ، ذو لحية كثة ، ووجه رزين ، ونظرة صارمة ، فجعلت أتعجب فيما بيني وبين نفسي كيف يسع هذا الرجل أن يضحك أحداً كائناً ما كان ما يعنيه أو يعزفه . وكان الشابان يكلمان الرجل بالألمانية التي لا نعرف منها حرفاً . وجلس الرجل إلى البيانو وشرع يدق فلم يبد لنا — أو على الأقل لي — أن في الأمر ما يضحك ؛ وكان جاداً وكان وجهه ساهما كأنه يحلم ، وغنى وهو يدق بصوت عميق قوي فالتفت إلى أحد الشابين فألفيته يبتسم فقلت : أبتسم مثله وأستر جهلي باتخاذه قدوة ، وصرت بعد ذلك أخالس الشابين أو أحدهما النظر وأفعل كما يفعلان فإذا ابتسما ابتسمت ، وإذا ضحكا ضحكت ، وإذا قهقها أطلقتها مجلجلة ؛ ولم أكن وحدي في هذا الاحتذاء فقد كان المدعوون مثلي جهلاء — أعني باللغة الألمانية — وقد خطر لهم كما خطر لي أن يحاكوا الشابين . وكنت ربما عجبت لمطربنا فقد كان إذا ضحكنا أو قهقهنا يرمينا بنظرات حامية فالتفت إلى الشابين مستغرباً ما يبدو عليه من الغضب والغيظ والنقمة فهمس في أذني أحدهما أن هذا هو المضحك .. هذا الجد الصارم على الرغم مما في القطعة التي يغنيها وما في تلحينها من الفكاهة الواضحة فهززت رأسي كأني فهمت وازددت اقتناعا بأن الأمر مضحك ولا شك ورحت أقهقه . ثم استغنيت عن النظر إلى الشابين والاقتداء بهما ورحت أضحك على مسئوليتي كما يقولون وخلعت ثوب الجهل والتقليد ، ولبست ثوب الدعوى العريض الفضفاض

وأخيراً نهض الرجل عن كرسيه وأدار فينا عيناً تقذف بالشرر وخرج مغضباً محنقاً يبرطم ويبرجم ونحن نتبادل نظرات الانكار لهذا السلوك العجيب فهل كان ضحكنا يا ترى أقل مما يجب؟ هل خيبنا أمله ببلادتنا ؟ لا بل بجهلنا فقد كان ما يعنيه قطعة مبكية من مأساة مشهورة ، وكان الرجل المسكين يعتز بأدائها على الوجه الصحيح ، فكاد يجن إذ كنا نتلقى ذلك بالهزء والسخرية. وقد اعتذرنا إليه بعد بضعة أيام — لما فهمنا الحقيقة وعرفنا أنها كانت مزحة قبيحة — ولكن المسكين كان قد تعذب ليالي لا ليلة واحدة .

ابراهيم عبد القادر المازني

الام يسير العـــالم ؟

طريق الحرب وطريق السلام

بقلم باحث دبلوماسي كبير

إلام يسير العالم ؟ هل يوفق إلى التغلب على أزماته واضطراباته الحاضرة أم يسير حتماً إلى حرب جديدة تغمره بالويل ؟ هذا سؤال يتردد اليوم على ألسنة جميع الأمم والافراد ؛ ولكن أشد المتفائلين لا يسعه إلا أن يسلم بأن العالم يجوز حالة من القلق والفوضى لا تبعث إلى الطمأنينة والرضى ، بل نستطيع أن نقول إن العالم يسير اليوم إلى مستقبل محفوف بالنذر والمخاطر ؛ فأينما سرحنا البصر القينا الأمم تجيش بالخصومات والمشاكل الداخلية والخارجية وتعاني متاعب العطلة والفاقة والأزمات الطاحنة ، وتسودها حالة ظاهرة من القلق والتشاؤم ؛ وفي أمم عدة تقوم نظم عنيفة طاغية تضطرم بروح الثورة على كل النظم والمبادىء القائمة ، وعلى كل العهود الدولية ، وتسحق في الداخل كل الحقوق والحريات العامة وتسلب الفرد كل المزايا والخواص الانسانية ، وتعد الشعوب لمعارك دموية تخوضها في سبيل أحلام ومطامع غامضة من السلطان والسيادة . وفي أكثر من ميدان تضطرم اليوم حروب عنيفة قاسية ، تجني شر الجنايات على شعوب آمنة مسالمة ، وتحصد أرواح البشر بأروع الأساليب والصور ، ولا يجد المضرمون لنارها وازعا يردهم عن جرائمهم لأنهم لا يؤمنون إلا بالقوة الهمجية وخصومهم ليسوا مثلهم على استعداد للإلتجاء إليها

هذه هي صورة العالم اليوم ، وهي صورة تحمل على التشاؤم أكثر مما تحمل على التفاؤل ، فلم يبلغ العالم منذ الحرب الكبرى ما يبلغه اليوم من الاضطراب والاضطرام والفوضى ؛ وكل ما هنالك يدل على أنه يجتاز مقدمات العاصفة كما كان يجوزها في سنتي ١٩١٣ — ١٩١٤ ، ولأسباب تشبه في معظمها تلك التي أدت إلى الانفجار في سنة ١٩١٤ ؛ ذلك أن الحرب الكبرى قامت لعاملين أساسيين هما الخصومات العنصرية والمطامع والمنافسات الاستعمارية ، وتلك الخصومات والمطامع والمنافسات هي التي تثير

اليوم معظم الأزمات الدولية ، وإليها يرجع بالأخص ما يعانيه العالم اليوم من أسباب القلق والاضطراب والفوضى ؛ فالحرب فى الشرق الأقصى بين الصين واليابان ، والحرب الأهلية الاسبانية وما يترتب عليهما من أزمات خطيرة تهدد سلام العالم ؛ والمنافسة الشائكة بين إيطاليا وإنكلترا على سيادة البحر الأبيض المتوسط ؛ وما تدعيه إيطاليا وألمانيا كل لنفسها من حقوق استعمارية ، وما يحفزهما إلى المبالغة فى التسلح والاستعداد للحرب : كل ذلك يرجع إلى شهوة التوسع والاستعمار ، وإلى المنافسة الاقتصادية والاستعمارية بين أمم كإيطاليا وألمانيا واليابان ترى أنها حرمت دون حق من نصيبها المشروع فى أسلاب الأمم الضعيفة وميادين الاستعمار الشاسعة وبين أمم مثـل إنكلترا وفرنسا تتمتع كلتاهما بأملاك استعمارية ضخمة وموارد اقتصادية عظيمة ، وتحرص كل الحرص على ما بيدها من هذا التراث الذى ترمقه الأمم الأخرى بعين الحفيظة والجشع ، وإلى هذا العامل الاستعمارى يرجع أيضا ما تعانيه الأمم المغلوبة من الآلام والمتاعب المادية والمعنوية ؛ فالاضطرابات الدموية التى تجيش بها فلسطين منذ أشهر ، والحركات القومية التى تجيش بها تونس والجزائر ومراكش ، وما تنزله الأمم الغالبة بهذه الأمم المغلوبة من ضروب القمع المنظم احتفاظا بسلطانها وسيادتها ، إنما هى أيضاً وليدة هذه الشهوة الاستعمارية التى لا تخبو ، والتى لا تعرف حقاً ولا عدالة ولا أى إعتبار إنسانى

ولقد كان غزو إيطاليا للحبشة إحدى هـذه الفورات الاستعمارية البربرية ، كما كان غزو اليابان من قبل لولاية منشوريا الصينية ، وكما هو اليوم شأنها فى الحرب التي تشهرها على الصين دون رأفة ولا هوادة ؛ ولم يكن موقف الأمم الأخرى بالأمس إزاء الاعتداء على الحبشة ، أو موقفها اليوم إزاء الاعتداء على الصين إلا وجهاً آخر من وجوه المأساة ، فهذه الأمم لاتحاول أن تعترض سبيل الأمم المعتدية لأنها تؤمن دونها بالحق وترغب فى الذود عنه ، ولـكن لأنها تخشي أن تظفر الأمم المعتدية دونها بمغانم وأسلاب استعمارية جديدة تزيد فى ثروتها وقوتها وخطرها

هذا عن العامل الاستعمارى ؛ وأما العامل العنصرى فيرجع إليه أيضاً قسط كبير فى إثارة الخصومات والقلاقل الدوليـة . ولقد كانت الخصومة السلافية الجرمانية من أهم العوامل التى عاونت إضرام نار الحرب الـكبرى ؛ أما اليوم فهنالك الدعوة الآرية أو دعوة الأجناس الرفيعة والأجناس المنحطة التى تشهرها ألمانيا الهتلرية فى وجه العالم ؛ وهنالك الخصومة الآرية اليهودية التى تذكي ضرامها بكل ماوسعت ؛ ثم هنالك مشكلة الأقليات القومية التى تتخذ فى أوربا الوسطى صوراً حادة تبث الحقد والحفيظة بين الأمم والعناصر المتجاورة ، وتنذر بتكدير السلم من آن لآخر

بيد أنه يوجد فى المعترك الدولى الحاضر عامل جوهرى آخر لم يعرفه العالم قبل الحرب الـكبرى ؛ وذلك هو الخصومة المضطرمة بين جبهتين مختلفتين من النظم والمبادئ السياسية والاقتصادية والاجتماعية ؛ فالنضال بين الفاشيستية والديموقراطية يشغل اليوم فراغاً كبيراً فى المعترك الدولى ، ويثير أزمات دولية خطيرة تنذر بتقويض صرح السـلم بين آونة وأخرى . والفاشيستية تذكي الاحقاد القوميـة والجنسية بصورة عنيفة تثير أعصاب الأمم المختلفة وتحول دون تفاهمها ، وتعمل بكل ما وسعت لتمزيق العهود الدولية ، وتدعيم نظرية القوة الغاشمة ، وجعل الحرب هى المثل الأعلى للأمم ؛ وهي بذلك تحمل أكبر تبعة فى خلق الأزمة الدولية الحاضرة ، وإثارة القلق الذى يساور جميع الأمم ، وتكدير جو السلام ، والتمهيد بحركاتها وتهديداتها العسكرية لجر حرب جديدة تبدو نذرها فى الأفق حيناً بعد حين

* * *

هذه الصورة المضطربة المروعة لأحوال العالم رسمها الرئيس روزفلت فى خطابه الذى ألقاه أخيراً فى شيكاغو وحمل فيه على « نظم الارهاب والانتهاك » التى فرضتها بعض الحكومات على العالم منذ بضعة أعوام ، وعلى تدخل هذه الحـكومات تدخلا غير مشروع فى الشئون الداخلية لبعض الأمم الأخرى ؛ وعلى غزو الأراضى الأجنبية انتهاكاً للمعاهدات والعهود الدولية ؛ وتساءل الرئيس روزفلت : كيف يقال إننا فى أوقات سلم والغواصات تتربص بالسفن الآمنة فتغرقها دون سبب ودون إنذار ، والقنابل تلقى على المسالمين الآمنين ومنهم نساء وأطفال أبرياء دون حرب ودون مبرر من أى نوع . هنالك أمم تزعم أنها تطلب الحرية وتقدسها ولـكنها تنكرها على الأمم الأخرى ؛ وهنالك شعوب بريئة تضحي لتحقيق شهوة سلطان وسيادة لا تبررها أية عدالة

أو أى اعتبار انسانى ؛ ومع ذلك فان هؤلاء الذين يلعبون بالنار ويعملون على تكدير السلم لايبلغون فى رأى الرئيس روزفلت أكثر من عشرة فى المائة من مجموع شعوب العالم . وأما التسعون فى المائة الباقية فهى شعوب ترغب فى السلام ، وتستطيع بل يجب عليها أن تجد الوسيلة لكى تحقق رغبتها فى صون السلام ، وأنه يستحيل عندئذ على أية أمة مسالة أن تلوذ بالعزلة والحياد من حالة الفوضى والاضطراب الدولى التى يخلقها انتهاك الحقوق

وصوت الرئيس روزفلت هو صوت الأمم الديموقراطية ؛ والدول التى يعنيها ، وهى المتهكة للحقوق والمعاهدات ، المقدمة على تكدير السلم وعلى الفتك بالآمنين والمسالمين ، هى الدول الفاشستية والاستعمارية ، أو بعبارة أخرى هى ألمانيا وإيطاليا واليابان ؛ ولكن الديموقراطية أبدت فى الأعوام الأخيرة كثيراً من ضروب الضعف والتردد ، وبالغت فى التمسك بالألفاظ والوعود ، ولم تحاول أن تؤيد كلمتها بوسائل فعالة إزاء العابثين بالحقوق والمنتهكين لحريات الأمم ؛ واستطاع هؤلاء بما رأوا من احجام الدول الديموقراطية وتخاذلها أن يقدموا على تنفيذ مشاريعهم بجرأة لا مثيل لها ؛ فقد ذهبت الحبشة ضحية لتهاون الديموقراطية ووعودها الخلابة ، واستولت عليها ايطاليا فى غمر النار والدم بينما كانت عصبة الأمم والدول الديموقراطية من حولها تردد أنشودة الحق والمعاهدات والعقوبات الاقتصادية ؛ وذهبت اسبانيا الجمهورية فريسة الدسائس الفاشستية وما زالت تعانى أكثر من عام أهوال حرب أهلية لم تقصدها ، ولم يثر ضرامها ويمدها بالوقود سوى أولئك الذين يرون أن يشقوا إلى أطماعهم طريق النار والدم ؛ وها هى ذى اليابان تتوغل فى الصين وتتخن فى جنباتها وتفنى جيوشها وشعوبها دون اعلان حرب ودون مبرر سوى ما ترى إليه من تحقيق شهواتها الاستعمارية ؛ كل ذلك والدول الديموقراطية تقنع بالاحتجاجات اللفظية وعقد لجان عدم التدخل والمؤتمرات التى لا طائل تحتها

والخلاصة ان الفاشستية المضطرمة تجيش بمشاريعها وتعمل لتحقيق شهواتها فى الاستعمار والسيادة غير مكترثة لما تهدد به سلام العالم من الأزمات والأخطار ؛ ذلك انها لا ترى أمامها سوى طريق العنف والدم ؛ والديموقراطية من جانبها تلوذ بالاحجام والمطاولة وتؤثر التراجع على الاصطدام الخطر ؛ ذلك أنها ترغب عن الحرب وتفتدى سلامها بكل ما وسعت ؛ ولكن النضال يصل اليوم إلى ذروته ، ولا بد أن تضطر الديموقراطية عاجلاً إلى العمل إذا لم ترد أن تفلت القيادة من يدها وتغدو تحت رحمة الفاشستية المتوثبة . فماذا يكون مصير السلام يومئذ ؟ وهل يؤدي الاصطدام إلى الانفجار الخطر ، أم تستطيع الديموقراطية بما تملك من وسائل الضغط المادي والمعنوى أن تقف هذا التيار المتوثب في الوقت المناسب فتنقذ بذلك سلامها وسلام العالم ؟ يقول لنا العلامة فيريرو ، وهو من ثقات التاريخ والسياسة : إن ما تعانيه أوربا الآن من الاضطراب والفوضى يشبه ما عانته منهما على أثر عقد معاهدة ڤينا عقب سقوط نابوليون ؛ ومعاهدة فرساى تشبه معاهدة ڤينا فى فساد الأسس والمبادىء التى قامت عليها ؛ وان الأزمات والأخطار العسكرية التى تواجهها أوربا ترجع إلى ما يسميه فيريرو « باستعمار الخوف » ؛ فان ايطاليا واليابان تنحدر كل منهما من مغامرة إلى أخرى للاحتفاظ بما كسبته من الأراضي من طريق غير مشروع على نحو ما كان يفعل نابوليون عقب كل انتصار من الاندفاع فى مغامرة جديدة للاحتفاظ بثمرة انتصاره . ويرى فيريرو أن ألمانيا التى استطاعت حتى الآن أن تجتنب هذه المغامرات يمكن أن تعد عاملاً جوهرياً فى تأييد السلم إذا رأت أن تجانب هذا التيار المتوثب وأن تضع يدها فى يد الديموقراطية الغربية ؛ أما اذا اندفعت ألمانيا فى هذا التيار فويل للسلام عندئذ . هذا ما يراه العلامة فيريرو ، ونحن معه فى ان الخطر على السلام إنما يرجع بالأخص إلى نزعات الفاشستية ومطامعها الاستعمارية ، وان مستقبل السلام منوط بموقف الديموقراطية ، فاذا هي بثست من الحلول والوسائل السلمية ، واستطاعت عندئذ أن تعتزم أمرها ، وأن تقابل الوعيد بالوعيد والضغط بمثله تؤيده استعداداتها ومواردها الضخمة ، فان تيار الفاشستية لا يلبث أن ينكشف ويخبو . وفى رأينا أن الساعة قد حلت لأن تسلك الديموقراطية هذا المسلك ؛ وفى يقيننا انها فاعلة بلا ريب .

(***)